الصورة الإسلامية في شعر الكميت بن زيد الأسدي الهاشميات انموذجا

أ.د. صالح محمد حسن اردیني

كلية التربية الأساسية/ جامعة الموصل

The Islamic Image in the Poetry of Al-Kumait ibn Zayd al-Asadi: The Hashemites as a Model

Prof Dr. Saleh Muhammad Hasan Ardini

College of Basic Education/University of Mosul

ملخص البحث

تجسد الصورة الإسلامية موقف الشاعر الكميت بن زيد الأسدي من آل البيت عليهم السلام، وتكشف عن قدرته الشعرية في تمثل طبيعة شخصياتهم الإسلامية، سواء المتصلة منها بواجباتهم الدينية المتمثلة بأداء الفروض والعبادات، أو دفاعهم عن حياض الدين والمبادئ والقيم العليا بوصفهم حملة هذه الرسالة، ثم بيان مدى حبه لآل البيت والدفاع عنهم.

ويتبين أثر ذلك في تعامله مع آل البيت كما تعامل القرآن الكريم مع المؤمن بصفاته الدينية الخالصة، لذلك جاءت الصورة مجسدة لمجموعة قيم ومثل عليا شكلت نموذجا عاليا. ولهذا أسميناها بـ(الصورة الإسلامية)، فهو حين مدح الأمويين-مثلا- لم يمدحهم بتلك الصفات الدينية، وإنما مدحهم بصفات دنيوية.

إن الصورة الإسلامية لا تختص بجانب واحد من جوانب الشخصية الممدوحة التي تعتمد آلية التنفيذ للأحكام والتعاليم الإسلامية وحسب بل تخطتها إلى صور تحف بها هالة من القداسة لأن مكانة آل البيت تعد امتدادا وتوكيدا لنهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولذلك وجد الكميت في دفاعه عنهم دفاعا عن الدين ومصالح المجتمع الإسلامي.

تعد هاشميات الكميت، من أهم القصائد في العصر الأموي، فضلا عن أهميتها لدى الشاعر، لأنها أول مظاهر التجديد الفني في بناء القصيدة العربية، إذ يعد الكميت سابقا للشعراء العباسيين في قضية تجديد مطالع القصيدة، وذلك بالدعوة إلى ترك الوقوف على الأطلال وافتتاح القصائد بحب آل البيت عليهم السلام.

وتدور الصورة التي نحن بصدد الكشف عن جوانبها ضمن دائرة الفهم الإسلامي، إذ يشكل المصدر الرئيس لها، لأنه يتصل بأرقى المشاعر وأنقاها، فضلا عن إغناء الذات الشاعرة بثرائه الروحي وزاده الفكري. والصورة لدينا ذات خصوصية، فهي ليست الصورة الفنية، ولا الحسية، ولا التشكيلية، وإنما

هي(الصورة المعنوية)، التي تنصرف إلى المعنى والموضوع بأدوات فنية.

قسمنا البحث على تمهيد، وثلاثة محاور، أما التمهيد فيبين مفهوم الصورة الإسلامية، وأما المحاور الثلاثة فهي:

الأول: مدح آل البيت ورثاؤهم بصور إسلامية نموذجية.

الثاني: أحقية آل البيت في الخلافة.

الثالث: هجاء الأمويين بسبب تعطيلهم الأحكام الإسلامية.

Abstract

The Islamic image embodies the poet Al-Kumait ibn Zayd al-Asadi's stance toward the Prophet's Household (peace be upon them). It reveals his poetic ability to represent the nature of their Islamic personalities, related to their religious duties, represented by the performance of religious obligations and worship, and their defence of faith, principles, and supreme values as bearers of this message. This image also demonstrates the extent of his love for the Prophet's Household and defence of them. The impact of this is evident in his treatment of the Prophet's family, just as the Holy Qur'an treats the believer with his pure religious qualities. Therefore, the image embodies a set of values and ideals that constitute a sublime model. This is why we call it the "Islamic image." For example, when he praised the Umayyads, he did not praise them for those religious qualities, but rather for their worldly attributes.

The Islamic image is not limited to a single aspect of the praised personality, which relies on the mechanism of implementing Islamic rulings and teachings. Rather, it extends to images surrounded by an aura of sanctity. This is because the status of the Prophet's family is an extension and confirmation of the approach of the Prophet (peace and blessings be upon him and his family), and Imam Ali

ibn Abi Talib (peace be upon him). Therefore, al-Kumait found in his stance a defence of religion and the interests of Islamic society. Al-Kumait's Hashimiyyat are among the most important poems of the Umayyad era. They are also significant to the poet, as they represent the first manifestation of artistic innovation in the construction of Arabic poetry. Al-Kumait preceded Abbasid poets in renewing the openings of poems, calling for abandoning the past and opening poems with love for the Prophet's family (peace be upon them).

The imagery we are about to explore revolves within the circle of Islamic understanding, as it constitutes its primary source. It connects to the most refined and purest of emotions, in addition to enriching the poet's self with its spiritual richness and intellectual provisions. For us, the image is unique; it is neither artistic, nor sensory, nor visual, but rather a "spiritual image," which addresses meaning and subject matter using artistic tools.

تمهيد: مفهوم الصورة الإسلامية:

ترد الصورة في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء، وهيئته، وعلى معنى صفة، وفي أسماء الله تعالى(المصوّر) الذي صوّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة متميزة يتميز بها على اختلافها وكثرتها[1].

إن التعريف اللغوي للصورة يهتم بالشكل الخارجي الذي يمثل حقيقة الشيء، وما ينتج عنه من صفة محددة، ويهتم بالصورة في صلتها بالمصوِّر(الخالق) وما ينتج عنه في عملية خلقه لها.

أما الصورة التي نبحث عنها فهي ذات سمة موضوعية، لأنها تدرس موضوعاً في النص الشعري، أو هي دال تصويري في النص الشعري، وما يتصل به من أفكار ومعان؛ أي أن (آل البيت)، موضوع خارجي تجسد في مضامين عديدة تناولها الشاعر في نص قوامه الكلمات التي تنطوي على دلالات مختلفة. والشكل الشعري يخرج الأفكار إخراجا فنيا يكون له تأثير في المتلقي بما يمتلك من فنية في صياغتها.

إن «التصوير في الأدب نتيجة لتعاون كل الحواس وكل الكلمات، والشاعر المصور حين يربط بين الأشياء يثير العواطف الأخلاقية والمعاني الفكرية»[2].حتى يصبح بإمكان المتلقي أن يتمثلها.

تلخص الصورة تجربة ما إزاء الموضوع المعبَّر عنه، فهي نتاج تمثل الشاعر لجوانب الموضوع وزواياه، ومنطلقه في الكشف عن ماهيته وسبر أغواره العميقة، لأن تلك الماهية ترتبط بفلسفة الروح المعبِّرة التي تلجأ أحياناً إلى الترميز، وأحياناً أخرى إلى التلميح أو التصريح. إذ إن «الصورة صيغة جزئية ينسجها العقل ليخزن فيها تمثل الذات لشذرة من شذرات الموضوع ومنسوجة صغيرة يودعها انفعال الداخل أمام الخارج مما يخول لنا حق تصورها كخزان صغير يحتقب كلاً من التصورات الذهنية والتفاعلات

النفسية المتخارجة، أي رؤية الداخل للخارج من جهة واستجابته لهذا الخارج من جهة أخرى»[٣].

أي أن الذات الشاعرة تلعب دورًا كبيرًا في تمثل الأشياء الخارجية، وصياغة الصورة بطريقة تكشف عن الترابطات الداخلية المحركة لها، لأن الصورة تحتوي على نموذج من العالم الموجود موضوعيا ونعني به (ال البيت) ثم يأتي دور الشاعر في إضافة العنصر الذاتي إلى هذا العالم.

ظل الشاعر الأموي واقعا في حدود مرجعيتين، الأولى: تراثية/ عربية تعود إلى عصر ما قبل الإسلام متمثلة بشخصية القيم الأخلاقية العربية من شجاعة وكرم ونجدة وأخلاق حميدة إذ «بقيت ملامح هذه الشخصية ثابتة واضحة في الأعم الأغلب ولم تختلف في العصر الأموي عنها في العصر الجاهلي اللهمَّ إلاّ في بعض الخطوط اليسيرة التي لا تغير على أية حال من وضع العناصر الرئيسة في الصورة»[٤]، والثانية: مرجعية دينية/ إسلامية متأثرة بالقرآن الكريم والثقافة الإسلامية تعامل الشاعر فيها مع ممدوحيه من خلال عناصر التصوير المستمدة من شعائر الدين ومثله العليا. أي أن لغة هذه النصوص ليست لغة خاصة مستقلة لأن معظم الصور التي وردت فيها صور مشتركة بين جميع الشعراء تقريبا لتشابه مصادرها التي تتحدد في الثقافة والبيئة والمرجعية. ولكن الشاعر الكميت اتخذ مسارا خاصا به، بمحاكاته للواقع المشرق لآل البيت عليهم السلام، فاشتملت صوره على صفات وسمات وسلوكيات ومنجزات، فكان مجددا في قصائده وخاصة في مطالعها التي دعت الى ترك الوقوف على الاطلال وافتتاحها بحب آل البيت عليهم السلام، لقد مثلت ظواهر الطبيعة الخارجية (البدر، الكواكب، الشُّهُب، البحر، الغيث) بوصفها معطيات موضوعية مثولا كليا في الصورة التي تمثلها الشاعر لأنه كان على تماس مباشر بها إذ انعكست في ذاته الداخلية، لذا جاءت معظم الصور مشتركة عنده

لأن الطبيعة واحدة ولها حدود ثابتة، واكتمل بناء الصورة بالتشبيه الحسي والأوصاف المادية المباشرة المستمدة من البيئة بوصفها موضوعا مستقلا عن الوعي «فالصورة في الشعر الأموي بقيت في حدود الواقع بمعنى أنها كانت وليدة الملاحظة العينية للمشاهد الواقعية إذ يكتفي الشاعر الأموي بتقرير أوجه الشبه بين الموجودات، يلاحقها، يلتقطها، يؤتمن عليها، يقيم منها عالما شعريا لا يفارق في شيء عالم المشاهدة»[٥].

لقد ركزنا على موضوع الصورة بما تشتمل عليه من قيم دينية ثابتة ومفاهيم أخلاقية سائدة ونمط خاص من التصرف بحكم طبيعة المسؤولية التي أُنيطت به، لأنه يتضح أكثر من شكلها التي ظلت القصيدة الأموية محافظة عليه «فالشعر في العصر الأموي لم يكن موقفا تعليليا من الحياة يتجسد في رؤية كونية بل كان مسحاً تاريخياً يلتزم حدود الظواهر لا يتعداها إلى ما هو أملأ وأروع وأرحب»[٦]، فقد التزمت الصورة حدود الأشياء ضمن مصادرها التي تستقي منها وهذا لا يعني أنها افتقرت إلى عنصر الخيال بما يسقطها في تقريرية بحتة تجعلنا نضعها في خانة النثر، لأنها عبرت عن موقف الشاعر الأموي بعد تمثله للأشياء الخارجية/ المدركات الموضوعية وامتزاجها مع عناصر كامنة في ذاته الداخلية وتلونها بلون عاطفته. فهي لا تختص بجانب واحد من جوانب الشخصيات الممدوحة التي تعتمد آلية التنفيذ للأحكام والتعاليم الإسلامية حسب، بل تخطتها إلى صور تحف بها هالة من القداسة، لأن مكانة عليهم السلام الدينية تعد امتدادًا وتوكيدًا للرسالة الاسلامية، وللرسول صلى الله عليه وآله. لذلك نهض الشاعر يدافع عنهم إذ وجد في دفاعهم عنهم دفاعاً عن الدين ومصالح المجتمع.

المحور الأول

مدح آل البيت ورثاؤهم بصور إسلامية نموذجية:

كان الكميت معتدلاً في مديحه،

بعيدًا عن الغلو والاسراف، وعن التملق والتكسب، فضلا عن الجرأة والوضوح، فمديحه «عبارة عن ملحمة يصور فيها القيم العليا لآل البيت عليهم السلام، الرجولية والانسانية والكرم الفياض، ولعلنا لا نذهب بعيدا في الظن إذا قلنا إن مديحه لآل البيت عليهم السلام صورة واقعية تجسد دورهم التاريخي في تماسك الأمة بالقيم التي نادى بها النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم»[٧].

والصورة السائدة هي الصورة النموذجية التي لا تقف عند حدود الرؤية المباشرة التي تعتمد الحواس مصدرا لها، وإنما التي تنفذ إلى أعماق النفس والعقل؛ فالشاعر لا يصور ما هو قائم ومتحقق في الواقع، وحسب، وإنما كل ما هو كائن في ذهنه وفقاً لرؤيته التي تتشكل في ضوء قناعته وثقافته وخبراته المختزنة وتجاربه في الحياة، وانفعاله بموضوع التجربة الحسية التي تمثل الباعث على استدعاء الصور التي تنسجم وموضوع التجربة. فقد «ولدت بدايات الشعر الأموي في كنف مجتمع إسلامي غض لم يكد ينسلخ على تأسيسه أكثر من أربعين عاما ومن ثم كان وهج الدعوة الإسلامية ما يزال فتيا يعمر النفوس»[٨].

ظلَّتْ سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاقيته في الحكم والسلوك حاضرة في نفس الشاعر الكميت وفي عقله، لذا فقد شبه آل بيته وصورهم مقتدين بسنته، وليس ذلك على سبيل الاقتداء والتشبيه حسب، وإنما هذه هي المرجعية الاسلامية التي يحاول الشاعر تأسيس صوره وفقا لها، وبهذا الصنيع يضع الصورة المثلى القائمة على العدل والتقوى، ويوجه دعوة ضمنية لأعدائهم لتمثل هذه السيرة وترسم خطاها، ويحقق تواصل الجماهير المسلمة وتأييدها.

تتنوع موضوعات الصورة الاسلامية في هاشميات الكميت، وتتفرد بتجاوزها المقدمة الطللية التي دأب عليها الشعراء، فالصورة لديه مختلفة عن صور الشعراء الذين سبقوه، أو عاصروه، على الرغم من أنه مثلهم،

يثير فضول المتلقي بحديثه عن طربه وشجوه، إلا إنَّ هذا الطرب لا يتجسد بالديار ورسوم المنازل، ولقاء الحسان من النساء، يقول في مقدمة الهاشمية الثانية:

"طربتُ وما شوقا إلى البيض أطربُ
ولا لَعِبًا منِّي وذو الشيبِ يلعبُ
ولم يُلْهني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ
ولم يتطرَّبْني بَنانٌ مُخَضَّبُ[٩]"

ولم يكتف برفض الأطلال والوقوف عليها، وانما بلفظ كل المعتقدات الموروثة عن العرب والتي تتنافى مع منهج الاسلام وسيرة الرسول ﷺ وآله الأطهار، إذ يبين موقفه الشخصي منها باستخدام ضمير المتكلم، (أنا)، وبأسلوب بلاغي يتمثل بالكناية فيقول:

"ولا أنا ممَّن يزجرُ الطيرَ همُّه
أصاحَ غُرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ
ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيةً
أمرَّ سليمُ القرن أم مرَّ أعْضَبُ[١٠]"

ثم يستدرك على ما سبق، بتقديم البديل عن ذلك كله، عبر استخدام، مفردة (لكن)، منعطفا بالنص انعطافة لطيفة وجميلة، تشد انتباه المتلقي، وتبين المراد، وذلك بالدعوة لآل البيت الذين يسميهم ويصفهم بمجموعة أسماء وأوصاف، (أهل الفضائل، خير بني حواء، النفر البيض، بني هاشم، رهط النبي)، داعيا إلى حبهم، والتمسك بمنهجهم، لأن ذلك يقربه إلى الله زلفى:

ولكنْ إلى أهل الفضائلِ والنُّهى
وخيرِ بني حواء والخير يُطلبُ
"إلى النَّفَر البيضِ الذين بحبِّهم
إلى الله فيما نابني أتقرب
خَفَضْتُ لهم مني جناحي مودة
إلى كَنَفٍ عطْفاه أهل ومرحب
بني هاشم رهط النبي فإنني
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب[١١]"

وفي السياق نفسه يبث الكميت هواه الخالص لآل البيت وهو الهوى الذي لا يشبه هوى النساء، والحب الذي لا يشبه حب الوقوف على آثار الديار، وذلك عبر استخدام شعرية السؤال بالأداة (من)، إذ يقول في

هاشميته الأولى:

"مَنْ لقلبٍ متيمٍ مستهام
غيرِ ما صبوةٍ ولا أحلام
طارقاتٍ ولا ادكار غواني
واضحاتِ الخدود كالآرام
بل هواي الذي أُجنُّ وأبدي
لبني هاشم فروع الأنام
فهم شيعتي وقسمي من الأمة
حسبي من سائر الأقسام
أخلص لي هواي فما أغرقُ
نَزعًا ولا تطيشُ سهامي[١٢]"

ويذكر الشاعر مناقب آل البيت، ويتغنى بأمجادهم، ويضع صورة الرسول ﷺ نصب أعينهم، نبراسا لهم وقدوة، فيقول:

"أُسْرةُ الصادقِ الحديثِ أبي القا
سم فَرعِ القَدامس القُدام
خيرِ حيٍّ وميّتٍ من بني آ
دم طُرًّا مأمومهم والإمام[١٣]"

ثم يذكر شخصيات هذه الاسرة، كلٌ بلقبه وقربه من الرسول، ودوره في حمل راية الاسلام والدفاع عنه، فيقول:

"ذو الجناحين وابنُ هالةَ منهم
أسدُ الله والكميُّ المحامي
والوصيُّ الذي أمال التّجُو
بى به عرش أمة لانهدام
ووصيُّ الوصيِّ ذي الخطة الفص
ل ومُردي الخصوم يوم الخصام
وقتيلٌ بالطّفِ غُودر منه
بين غوغاء أمة وطغام
وسَميُّ النبي بالشّعب ذي الخي
ف طريدِ المُحِلِّ بالأحرام
وأبو الفضل إنَّ ذكرهمْ الحل
وبفي الشفاء للاسقام[١٤]"

وننتقل من المدح إلى الرثاء، ذلك الغرض الذي يظهر الحب الحقيقي والصادق للمرثي، لأنه موجه إلى شخص لم يعد على قيد الحياة، فيكون ذلك أكثر تأثيرًا من المديح الذي يوجه لشخص حي، مع أن مديح الكميت -كما ذكرنا- (لآل البيت) صادق، ولم يكن مدحا تكسبيا.

فقد برع الشاعر في حشد أكبر قدر من الجزئيات في الصورة الاسلامية في رثاء النبي ﷺ:

"كان ميتًا جنازةً خيرُ ميتٍ
غيَّبَتْه مقابرُ الأقوام
وجنينا ومُرضعا ساكن المهد
وبعد الرضاع عند الفطام
خيرُ مسترضعٍ وخيرُ فطيم
وجنين أُقرَّ في الأرحام
وغلاما وناشئا ثمَّ كهلا
خيرُ كهل وناشيء وغُلام[١٥]"

فالشاعر يتتبع مراحل حياة النبي من الولادة حتى الممات، (جنين، مرضَع، فطيم، غلاما، ناشيء، كهلا)، وكل مرحلة من هذه المراحل تتصف بالخيرية، بدلالة تكرار مفردة (خير)، أربع مرات في النص، ليجسد الصورة في أبهى معانيها.

وهكذا شغل موضوع الرثاء مساحة كبيرة في شعر الكميت، وخاصة رثاؤه للإمام الحسين عليه السلام، الذي جسد تلك المأساة الكبيرة، وذلك المصاب الأليم، وذلك بصور إسلامية، مؤثرة في المتلقي، وتحض على الاقتصاص من قتلته، وفي النص الآتي، يشبه حال الحسين عليه السلام، وأصحابه، وما أصابهم من سيوف الأمويين بالرَّطب، فكما يُستحل أخذ البقل، يستحل الأمويون دماء آل البيت، دون حرمة لحق النبي صلى الله عليه وآله في ابناء بنته، وهنا تلعب أداة التشبيه (كأنَّ)، دورا بالغا في توجيه الصورة، فيقول:

"كأنَّ حسينا والبهاليلَ حوله
لأسيافهم ما يختلي لمُتبقِّل
يَخُضْنَ بهم من آل احمد في الوغى
دَمًا ظلَّ منهم كالبهيم المحجل
وغاب نبي الله عنهم وفقده
على الناس رُزءٌ ما هناك مجلل
فلم أر مخذولا لأجل مصيبة
وأوجب منه نصرةً حين يُخذل[١٦]"

ويستخدم الكميت مفردة دالة على الموت العنيف (قتيل)، ويكررها لتبيان مدى وقعها على النفوس، (قتل، قتلوه)، ثم يشير إلى المقتول دون أن يسميه -كما في النص السابق- وإنما يعرف من خلال ارتباطه بالمكان (الطف) وذلك في إشارة واضحة للإمام الحسين عليه السلام، يقول في رثاءه:

"وقتيلٍ بالطَّف غُودر منه
بين غوغاء أمة وطغام
تركب الطير كالمجاسد منه
مع هاب من التراب هيام
وتطيل المرزءاتُ المقالي
ت عليه القعود بعد القيام
يتعرفنَّ حُرَّ وجهٍ عليه
عِقبةُ السَّرْو ظاهرا والوسام
قتل الأدعياءُ إذ قتلوه
أكرم الشاربين صوب الغمام[١٧]"

ويعتمد الكميت أسلوب السرد من خلال الحدث، أو ما أطلق عليه (أكبر الأحداث)، والمكان، (الطف)، والأشخاص (بني هاشم)، ويلح فيه على الفكرة من خلال تكرار مفردة (قتيل) ثلاث مرات، وكذلك تصوير الهيأة المقتولة (ومنعفر الخدين، الجبين المترب، شم العرانين)، فرثاء الحسين يبكي العيون ويدمي القلوب ويلهب المشاعر، يقول الكميت:

"ومن أكبر الأحداث كانت مصيبة
علينا قتيل الأدعياء الملحب
قتيل بجنب الطف من آل هاشم
فيالك لحما ليس عنه مذبب
ومنعفر الخدين من آل هاشم
الا حبذا ذاك الجبين المترب
قتيل كأن الوله النكد حوله
يطفن به شم العرانين ربرب[١٨]"

المحور الثاني

أحقية بني هاشم بالخلافة:

استخدم الكميت الحجاج والاستدلال والبرهان في أحقية بني هاشم بالخلافة، الذين يخاطبهم، بـ(آل أحمد، آل النبي، بني هاشم)، معتمدا أسلوب القصر والاستثناء (ما، إلا)، الذي يتكرر ثانية، في دلالة على عمق إيمانه بهم، وانقطاعه إليهم، ثم يعزز ذلك بالاحتجاج بالقرآن الكريم في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[١٩]، يقول:

"فمالي إلا آل أحمد شيعة
ومالي إلا مشعب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسي شيعة
ومن بعدهم لا مَنْ أُجلُّ وأرحب

إليكم ذوي آل النبي تطلعت
نوازع من قلبي ظماء وألبب
وجدنا لكم في آل حاميم آية
تأولها مناتقي ومعرب
وفي غيرها آيا وآيا تتابعت
لكم فيها نصب لذي الشك منصب[٢٠]"

وحين يدعو إلى نظرية في الحكم تقوم على العدل والحلم والحزم والشجاعة، ممثلة بآل البيت عليهم السلام، فهم (أسد حرب، غيوث جدب، بهاليل مقاويل، سادة ذادة، ساسة)، وذلك بإزاء نظرية الحكم الأموي التي تقوم على سياسة غير عادلة، وغير حكيمة، (كمن يرى رعية الناس سواء ورعية الأغنام)، ويلاحظ أنه يسمي عددا من الخلفاء بأسمائهم الصريحة، ضمن حقبة متتابعة، (عبد الملك، الوليد، سليمان، هشام)، متخطيا الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي كانت فترة حكمه بين سليمان وهشام (٩٩-١٠١هـ)، ومعلوم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز حظي بإجماع الأمة حتى أنه مُدح من شعراء الشيعة مثل كثير عزة وغيره وذلك لسياسته العادلة، يقول الكميت:

"أُسْدُ حَرْبٍ غُيوثِ جَدْبٍ
بهاليل مقاويل غير ما إقدام
سادة ذادة عن الخرد البيض
إذا اليوم كان كالأيام
ساسة لا كمن يرى رعية النا
س سواءٌ ورعية الأنعام
لا كعبد المليك أو كوليد
أو سليمان بعد أو كهشام[٢١]"

يرى شوقي ضيف أن الكميت يصدر في هاشمياته عن ذوق جديد لا نعرفه في العربية لشاعر من قبله: ذوق عقلي إن صح هذا التعبير، فهو لا يعبر عن هذا الشعور والعواطف وهو من هذه الناحية يصور لنا التطور الذي أصاب العقل العربي في هذه العصور، فهاشمياته حجاج وجدل في مسألة الهاشميين بالضبط، كما كان يحاجج ويجادل الحسن البصري وزملاؤه وتلاميذه في مسألة القدر، فعنده فكرة معينة متناسقة يكتب فيها هاشمياته وله هدف معين يريده من

هذه الهاشميات[٢٢].

وهدفه دائما تصوير آل البيت عليهم السلام، بصور إسلامية، فضلا عن الصورة التراثية/ العربية المتمثلة بشخصية القيم الأخلاقية من شجاعة وكرم ونجدة، لأنَّ هذه الصورة هي الأكثر تأثيرا، والأكثر قبولا لدى المتلقين، حتى أن الخليفة عبد الملك بن مروان كان ينشد مثل هذه الصور من الشعراء، حين قال: يا معشر الشعراء، تشبهوننا بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم كما قال ايمن بن خريم في بني هاشم[٢٣]:

"نهاركُمُ مكابدةٌ وصومُ
وليلكمُ صلاةٌ واقتراء"

وفي النص التالي نجد الصورة الاسلامية، في البيت الثالث وذلك في قوله:(طالبين هاشميين في السلم ... ربوا من عطية العلام)، وهكذا وهب الكميت نفسه وشعره للدفاع عن آل البيت وأحقيتهم في الخلافة، يقول:

"الحماة الكفاة في الحرب إن لف
ضرام وقودها بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا
س فمأوى حواضن الأيتام
طالبين هاشميين في السلم
ربوا من عطية العلام"

وتتطور القضية لديه إلى السخط والاحتجاج على نظام الحكم الوراثي، الذي أحدثه بني أمية، فيقول:

إذا اتضَّعونا كارهين لبَيْعَةٍ
أناخُوا الأخرى والأزِمَّةُ تُجْذَبُ
ردافاً علينا لمْ يَسيمُوا رعيةً
وهمَّهُمُ أن يمتروها فَيَحْلِبُوا
لينتجوها فتنةً بعدَ فتنةً
فيفتصلوا أفلاءها ثُمَّ يربوا
لنا قائدٌ مِنْهُمْ عنيفٌ وسائقٌ
يُقحِّمُنا تلكَ الجراثيم مُتْعِبُ
وقالوا ورِثناها أبانا وأمنا
وما ورَّثتهُمْ ذاك أمٌّ ولا أبُ
يرون لهم فضلا على الناس واجبا
سفاها وحق الهاشميين أوجب[٢٤]"

يعبر عن نظام الوراثة المتمثل بالبيعة للخليفة وولاية العهد بالناقة،

التي تُستغل أبشع استغلال، (اناخوا، ردافا، يحلبوا، ينتجوها، يفتصلوا، يربوا)، فقد كان الشعراء الأمويون «يولون الناقة اهتماماً كبيراً كما كان يوليها الجاهليون ويستمدون من أحوالها وحركاتها، وصفاتها الجسدية والنفسية كثيراً من تشبيهاتهم واستعاراتهم وصورهم المجازية»[٢٥]، وبعد هذه الدلالة التصويرية للبيعة/ الناقة، يلجأ إلى الحجاج عبر أسلوب الحوار (وقالوا، يرون) ليتم تفنيد زعم الأمويين القائل بأحقيتهم في وراثة الحكم، (وما ورثتهم ذاك أم ولا أب، وحق الهاشميين أوجب).

ويقر في الهاشمية الثانية إن الخلافة لو لم تكن حقًّا لبني هاشم لاشتركت فيه القبائل جميعها، ولكان للأنصار منها النصيب الأوفر، يقول:

يقولون لم يُورث ولولا تراثُهُ
لقد شركت فيه بكيلٌ وأرحبُ
وعكٌ ولخمٌ والسَّكون وحِمْير
وكندةُ والحيانِ بكرٌ وتغلبُ
ولانتشلتْ عِضوينِ منها يُحابر
وكان لعبد القيس عضوٌ مؤرَّبُ
وما كانت الأنصار فيه أذلة
ولا غُيِّبًا عنها إذا الناس غُيَّبُ[٢٦]"

ينبني النص بأكمله على أسلوب الحوار بصيغة الجمع (يقولون)، والمقصود بهم (الأمويين)، ثم تأتي الإجابة على لسانه، باستخدام الحجة، عبر الرجوع إلى بداية الاسلام، ونشر الرسالة على يد النبي محمد ﷺ، الذي لولاه لاشتركت فيه القبائل العربية، ولما غُيب الأنصار عنه.

المحور الثالث

هجاء الأمويين:

وكثيرا ما يقارن بين الشيعة والأمويين، فيمدح الشيعة بصفات إسلامية بحتة، ثم يسلب الأمويين هذه الصفات من خلال عقد مقارنة بينهم وبين آل البيت، وهذه هي الصورة الاسلامية التي تعتمد التعريض بأسلوب السخرية والنقد اللاذع لأحوال المجتمع في ظل الخلافة الأموية فيقول:

"ألا هل عَمٍ في رأيه متأمِّلُ
وَهَلْ مُقْبِلٌ بعد الإساءةِ مُدْبِرُ
وهل أمةٌ مستيقظون لرشدهمْ
فتكشفَ عنه النعسة المتزملُ
وعُطِلَتْ الأحكامُ حتىَّ كأننا
على ملَّةٍ غير التي نتنحلُ
كلامُ النبيين الهداة كلامنا
وأفعالَ أهل الجاهليةِ نفعلُ
فتلكَ أمور الناس أضحتْ كأنها
أمورُ مضيِّعٍ آثر النوم بُهَّلُ
مصيبٌ على الأعوادِ يوم ركوبها
لِمَا قال فيها مخطيءٌ حين ينزلُ
ألمْ يتدبرْ آيةً فتدلُّهُ
على ترك ما يأتي أمْ القلبُ مُقْفَلُ[٢٧]"

إذا كان الشاعر شاهدا على عصره فإن شهادته ليست انعكاسات واضحة أو كشفا عن نمط القوانين التي تحرك المجتمع في ظل الحكم الأموي. إنها تعبير عن موقف مضاد، أي أن الشاعر يصور مواطن الخلل التي أصابت المجتمع كما يراها هو. ففي المدخل يظهر الصراع مع النفس من خلال التضاد بين (مدبر- مقبل) (يقظة-نعاس) التي تعبر عن تناقضات الواقع الذي يعيشه الناس، فالشاعر يقدم الواقع السلبي ويدعو إلى رفضه من خلال الدعوة إلى اليقظة والتخلص من رتابة الخمول، وقد امتزج بأسلوب الاستفهام الذي صبغ البيتين بصبغة استفزازية. وينتقل الشاعر إلى تصوير حالة الظلم (وعطلّت الأحكام) التي تدل على وقوعها بفعل قوة خارجة عن إرادتها، إذ يعرض بإزائها صورة الذل والهوان التي تعيشها الجماعة أو التي يعيشها الشاعر من خلال الجماعة، والتي تكشف عن التعارض بين القول والفعل. إن تناقضات الواقع وعدم حتمية الفعل أدت إلى حالة الضياع مما يوحي بحس الاغتراب، الاغتراب النفسي الذي سببه الشعور بالإهمال والانسحاق لغياب العدالة الأرضية ولضياع القيم والمثل الدينية.

وأحيانا يخاطبهم بشكل مباشر وصريح قائلا:

فقل لبني أمية حيث كانوا
وان خفت المهند والقطيعا

أجاع الله من اشبعتموه
وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضي السياسة هاشمي
يكون حيا لأمته ربيعا[٢٨]"

ويقول الكميت في خلفاء بني أمية[٢٩]:

"لهُمْ كُلَّ عامٍ بِدْعَةٌ يُحْدِثونها
أزلُّوا بها أتباعَهُمْ ثُمَّ أوجلوا
وَعيْبٌ لأهلِ الدين بَعْدَ ثباته
إلى مُحْدَثاتٍ ليسَ عنها التنقلُ
كما ابتدعَ الرهبانُ مالمْ يجيء بهِ
كتابٌ ولا وحيٌ من الله مُنْزَلُ
تحلُّ دماءُ المسلمينَ لَدَيْهِمُ
ويَحْرُمُ طلعَ النخلةِ المتَّهدل"

يصور الشاعر سلطة الأمويين على أساس من البدع والضلالة، إذ إن كل ما في الصورة يرتبط بنزعة عنيفة إلى التدمير وارتكاب المحرمات التي يرفضها التشريع الديني، وحرية الأفراد. فقد عمد الشاعر إلى إخراج الأمويين من دائرة الإسلام إذ شبههم بالرهبان، وهذا التشبيه يدل على مدى الأثر السلبي الذي أصبح فيه التجاوز على المقدسات أمراً ممكناً، هذا عن دلالة الصورة الظاهرة، أما ما توحي به من دلالة خفية فهو الدعوة إلى التمرد والثورة ضد فئة تنعم على حساب المبادئ وهلاك الآخرين.

ولو أمعنا النظر في الأبيات السابقة خصوصا وفي الهاشميات عموما لوجدناها تدور حول فكرة تنبع من تعاليم الإسلام وأفكاره، وهي فكرة العدل والمساواة بين المسلمين، فهو يهجو بني أمية، لبعدهم عن هدي القران وسنة الرسول ﷺ ، ولضلالة بدعهم التي أحدثوها، كما ابتدع الرهبان مالم ينزل به سلطانا، وبذلك يعقد مقاربة فعلية ضمن دائرة الفهم الاسلامي، ويبين الفرق بين الأمويين والهاشميين.

ويلاحظ أن الشاعر يتكلم باستخدام ضمير الغائب بصيغة الجمع، وهذا ما سنلاحظه عند معظم شعراء الصورة السلبية وسبب ذلك يعود إلى أن الشاعر ليس لديه موقف مع خليفة بعينه، وإنما هو ضد الخلافة

الأموية بشكل عام لأنه يرفضها أساساً، ومن ثم يرفض حكم الخليفة القائم ممثلا بها.

ويرصد الكميت بن زيد الأسدي ما في الحكم الأموي من عدول عن هدى القرآن، وسنة الرسول ﷺ وما في حكم الخليفة من ظلم وتعسف فيقول[٣٠]:

"فيا ساسةً هاتوا النا من جوابكمْ
ففيكُمْ لعمري ذو أفانين مقْوَلُ
أأهلُ كتابٍ نحنُ فيه وأنتمُ
على الحقِّ نقضي بالكتاب ونعدلُ
أم الوحيُ منبوذٌ وراء ظهورنا
فيحكم فينا المرزُبان المرفَّلُ"

يستخدم الشاعر أسلوب التهكم والسخرية، وذلك في قوله (فيا ساسة) وأراد بذلك ساسة الناس، وهذا على سبيل الهزء بهم، ويمزج ذلك بأسلوب الاستفهام الذي ينطوي على موازنة ضمنية بين الحكم القائم وبين الصورة المثالية لما يمكن أن يكون الحكم عليه من العدل والرحمة.

إن صورة الحكم في النص توحي بتوحد الشخصيتين ليصبحا شخصية واحدة في طبيعة التصرف ونمط السلوك أي في الانتقال من شخصية عربية ماجدة إلى شخصية فارسية تمثل شيئاً سلبياً في نظر المسلمين لارتباطها عندهم بالظلم والطغيان.

ويكشف الشاعر نفسه عن جانب آخر من جوانب السياسة الظالمة للأمويين، إذ يصور الخليفة هشام بن عبد الملك ووالية خالد القسري بصورتي الذئب والضبع، فيقول[٣١]:

"لنا راعيا سوءٍ مُضيعان منهما
أبو جعدة العادي وعرفاءُ جيألُ
أتتْ غنماً ضاعتْ وغابَ رِعاؤها
لها فُرْعلٌ فيها شريكٌ وفرْعُلُ"

يتحول الخليفة عند الشاعر إلى ذئب وهذا التحول ينطوي على دلالة تقضي بموت شعوره الإنساني ووقوعه أسير غريزته الحيوانية إذ تؤكد هذه الصورة حالتي الغدر والخيانة، فأبو جعدة (كنية الذئب)، يظهر في الليل عادة والليل غطاء للغدر، والخيانة تسري على الحيوان مثلها مثل الإنسان

(أتت غنما وغاب رعاؤها).

وهذه الصورة -كما رآها الشاعر- تبين فساد الحكم الأموي ممثلا بالخليفة، إذ إن الصورة تتلون بلون المشاعر التي يشعر فيها الإنسان تجاه الآخر، فمشاعر الكره التي جعلته يصور الخليفة الأموي بهذه الصورة المرعبة هي غير مشاعر الحب التي جعلته يصور سياسة آل البيت بالصورة المثلى وذلك في النص التالي الذي يهاجم فيه سياسة الأمويين، فيقول[٣٢]:

"ساسةٌ لا كمن يرى رِعية النا
سِ سواءً ورِعيةِ الأنعام
لا كعبدِ المليكِ أو كوليدٍ
أو سليمانَ بَعْدُ أو كهِشام
جَزُّ ذي الصُّوفِ وانتقاءٌ لذي المخة
وانْعَقْ وَدعْدعاً بالبهام
مَنْ يَمُتْ لا يمُتْ فقيداً ومن يحيَ
فلا ذو إلٍ ولا ذو ذِمام
رأيه فيهم كرأي ذي الثلة
في التائجات جُنح الظلام[٣٣]"

تظهر صورة الحكم الأموي السلبية القائمة على الاضطهاد والاستغلال عند الشاعر في موقفه الموحد من الخلفاء الذي لا يفرق فيه بين عبد الملك أو الوليد أو غيره فكل هؤلاء رموز للسياسة الأموية التي يرفضها لأنها في نظره لا تفرق بين الإنسان والحيوان.

فبناء الصورة عنده يعتمد على الأوصاف المادية المباشرة المستمدة في الغالب من البيئة البدوية بما فيها من حيوان ونبات وغير ذلك.

الخاتمة:

الصورة الإسلامية هي صورة موضوعية معنوية، تستند إلى فكر الإسلام وتستمد أفكارها ومعانيها منه، قادرة على تصوير المعنى وإيصاله للمتلقي بشكل فاعل ومؤثر، وبمشاعر صادقة.

حب الكميت لآل البيت عليهم السلام، حب صادق ومخلص، تجسد في قصائده التي عرفت بالهاشميات نسبة إلى بني هاشم، لذلك جاء مديحه ورثاؤه لهم بعيدا عن التكسب، كما هو متداول لدى شعراء العصر الأموي.

شيوع الحجاج والبراهين في شعر الكميت، لأنه يدعو إلى عقيدة، ويدافع عن أحقية بني هاشم في الخلافة لم يكن صادقا في مدحه للأمويين، وإنما كان مضطرا بسبب السجن وما إلى ذلك من أساليب التهديد والوعيد.

سبق الشعراء العباسيين في مسألة تجديد مطالع القصيدة العربية، فقد دعا إلى افتتاح قصائده بحب آل البيت بدلا من افتتاحها بذكر الأطلال والحنين إلى الديار

الهوامش:

١- لسان العرب، ابن منظور، مادة صور:٦: ١٤٤، وتاج العروس، الزبيدي، مادة صور:٣: ٣٤٣.

٢- الصورة الأدبية، د.مصطفى ناصف: ٨.

٣- مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف:٢٩٨.

٤- الشعر الأموي: دراسة في التقاليد والأصالة الأدبية، د.أحمد محمد فتوح: ١٠٧.

٥- الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، د. ساسين عساف:٧٤.

٦- نفسه:٧٤.

٧- الصورة الفنية في شعر الكميت بن زيد الأسدي، عباس عبيد الساعدي، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد ٤، ص١٨٢.

٨- الشعر الأموي: دراسة في التقاليد والأصالة الأدبية، د. محمد فتوح:٩.

٩- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، بتفسير أبي رياش، أحمد بن إبراهيم القيسي، داود سلوم، ونوري القيسي:٤٣.

١٠- شرح هاشميات الكميت: ٤٤.

١١- شرح هاشميات الكميت:٤٥، ٤٦.

١٢- شرح هاشميات الكميت:١٢،١١.

١٣- ديوان الكميت، الهاشمية الأولى، تحقيق محمد نبيل طريفي:٤٩٩.

١٤- المصدر نفسه: ٥٠٦.

١٥- ديوان الكميت، الهاشمية الأولى: ٥٠٠.

١٦- المصدر نفسه: ١٦٧، ١٦٨.

١٧- المصدر نفسه:٣٣، ٣٤.

١٨- ديوان الكميت، الهاشمية الثانية: ٥٤٢.

١٩- سورة الشورى، الآية ٢٣.

٢٠- نفسه: ٥١٧.

٢١- نفسه: الهاشمية الأولى:٤٩٥.

٢٢- التطور والتجديد في الشعر الأموي: ٢٧٦.

٢٣- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٢/ ٢٧٢.

٢٤- ديوان الكميت، الهاشمية الثانية: ٥٢٤.

٢٥- في الشعر الإسلامي والأموي، د.عبد القادر القط:٣٦١.
٢٦- ديوان الكميت، الهاشمية الثانية: ٥٢٦.
٢٧- شرح هاشميات الكميت:١٤٦.
٢٨- ديوان الكميت الهاشمية السادسة: ٦٢٤.
٢٩- شرح هاشميات الكميت:١٦٢.
٣٠- شرح هاشميات الكميت:١٥٣.
٣١- نفسه:١٥٦.
٣٢- نفسه:٢٣.
٣٣- نفسه، الهاشمية الأولى:٤٨٨.

لمصادر والمراجع:

١- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، ١، ١٩٦٠.

٢- تاج العروس، محب الدين أبو الفيض مرتضى الزبيدي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، د.ت.

٣- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د.شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف بمصر، د.ت.

٤- ديوان الكميت بن زيد الأسدي، شرح وتحقيق نبيل طريفي، دار صادر، بيروت،٢٠٠٠.

٥- شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي، بتفسير أبي رياش، أحمد بن إبراهيم القيسي،، تحقيق: د. داود سلوم، ود. نوري القيسي،ط١،عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤م.

٦- الشعر الأموي، دراسة في التقاليد والأصالة الأدبية، د. محمد فتوح، مكتبة الشباب، مط قاصد خير بالمنيرة، ١٩٧٧.

٧- الصورة الأدبية، د.مصطفى ناصف،ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١.

٨- الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، ساسين عساف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢.

٩- مقالات في الشعر الجاهلي، د.يوسف اليوسف، ط٢، دار الحقائق، بيروت،١٩٨٠.

١٠- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار العربية للتأليف والنشر، د.ت.

١١- في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١.

البحوث:

١٢- الصورة الفنية في شعر الكميت بن زيد الأسدي، عباس عبيد الساعدي، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد ٤، ص١٨٢.